من المحاولات الفردية لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر

قراءة فى بعض كتابات محمد عزة دروزة وأمين سعيد

أ . د . محمد عبد الرؤوف سليم

ولد **محمد عزة دروزة** يوم ٣٠ يونيو عام ١٨٨٨ فى نابلس بفلسطين ، وينتسب إلى عشيرة عربية اسمها الفريحات وموطنها كفر نجه فى لواء عجلون بشمال الأردن ، وقد نزحت العشيرة فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى إلى نابلس ولقبت بعائلة دروزة . وقد تقلب فى السلك الوظيفى فى العهد العثمانى ثم عمل فى مجالى التعليم والأوقاف ، وشارك فى الحركة العربية الحديثة ، وفى الحركة الوطنية الفلسطينية .

وإلى جانب عمله الوظيفى ونشاطه السياسى ، استمر اهتمامه بالعلم والتعليم ، وبدأ إنتاجه الأدبى فى شكل مقالات نشرت فى جريدة الحقيقة البيروتية . ونشرت له بعض الروايات الأدبية كانت ذات اتجاه قومى عربى ، أهمها رواية السمسار عام ١٩١٣ أوضح فيها دروزة خطر سماسرة الأراضى الذين كانوا يسعون فى شرائها لصالح اليهود . واتسمت مؤلفاته بالطابعين الدينى والتاريخى . ونثبت فيما يلى مؤلفاته فى تاريخ العرب :

١ - مختصر تاريخ العرب والإسلام . فى جزئين . طبع مرتين فى المطبعة

السلفية، القاهرة، ١٩٢٥، ١٩٢٧.

٢ - دروس التاريخ العربى. بغداد، بدون تاريخ.

٣ - دروس فى التاريخ المتوسط والحديث. طبع ثلاث مرات. دمشق، ١٩٣٢ - ١٩٣٨.

٤ - تركيا الحديثة. دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٦.

٥ - عصر النبى ﷺ وبيئته. ط ١، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٦.

٦ - سيرة الرسول ﷺ من القرآن الكريم. جزءان. ط ١ القاهرة، ١٩٤٨، ط ٢ القاهرة ١٩٦٥.

٧ - القرآن واليهود وأخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم فى زمن النبى ﷺ. دمشق، ١٩٤٩.

٨ - حول الحركة العربية الحديثة. ستة أجزاء. المطبعة العصرية، بيروت ١٩٥١، ١٩٥٢.

٩ - مشاكل العالم العربى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٥٢.

١٠ - الوحدة العربية، مباحث فى أحوال البلاد العربية وضرورة الوحدة وتوافر عناصرها وعقباتها ومعالجتها. بيروت، ١٩٥٨.

١١ - تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم. مطبعة نهضة مصر. القاهرة، ١٩٥٨.

١٢- تاريخ الجنس العربى فى مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة . ثمانية أجزاء . المطبعة العصرية ، صيدا ، ١٩٥٨ - ١٩٦٤.

١٣ - العرب والعروبة فى حقبة التغلب التركى . موسوعة فى عدة أجزاء . دار اليقظة العربية ، دمشق ، ١٩٦٠، ١٩٦١.

١٤ - عروبة مصر قبل الإسلام وبعده . المطبعة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٣.

١٥ - مأساة فلسطين . دار اليقظة العربية ، دمشق ، ١٩٦٠.

١٦ - جهاد الفلسطينيين . دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦١.

١٧ - نشأة الحركة العربية الحديثة . المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٧٢.

١٨ - عبرة من تاريخ فلسطين القديم . المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٧٨.

١٩ - العدوان الإسرائيلى القديم والعدوان الصهيونى الحديث (جزءان) . دار الكلمة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩.

٢٠ - القضية الفلسطينية فى مختلف مراحلها . دائرة الإعلام والثقافة ، منظمة التحرير الفلسطينية . ط ٣، ١٩٧٨.

وكما أثبتنا هذه المؤلفات لمحمد عزة دروزة ، فإننا نثبت **لأمين سعيد المؤلفات التالية** وسنوات صدورها :

١ - تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢ (١٩٥٩) .

٢ - ثورات العرب فى القرن العشرين (١٩٦١).

٣ - الوطن العربى (بدون تاريخ).

٤ - الثورة العربية الكبرى (١٩٦٠).

٥ - الثورة من ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ (١٩٥٩).

٦ - حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية (١٩٥٥).

٧ - الدولة العربية المتحدة، تاريخ الاستعمار الأوربى فى بلاد العرب (١٩٥٤).

٨ - العدوان ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - أول فبراير ١٩٥٨ (١٩٥٩).

٩ - نشأة الدولة الإسلامية «فتح جزيرة العرب» (١٩٣٤).

١٠ - اليمن «تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى» (١٩٥٩).

وفى تتبعنا لهذه المؤلفات التى تمثل إنتاجا علميا غزيرا نجد نافذة واسعة نطل منها على ساحة تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ونتعلم الكثير من دروس هذا التاريخ وعظاته، ونقف على الكثير من دقائقه. وعلى ذلك يمكن القول أن هذا الإنتاج أمد المكتبة العربية بمؤلفات قيمة، كان المؤلف فيها يقف مدافعا عن قضية هو يتبناها ولكنه لم يخرج عن الموضوعية فى كثير من الأحيان، وإن كان الواضح أن المؤلف هنا عربى يؤمن بعروبته. وتبرز هذه المسألة واضحة تماما خاصة فى كتابات محمد عزة دروزة عن الحركة العربية الحديثة والوحدة العربية

وقضية فلسطين، التى ركز عليها وأكد الحق العربى فيها بشدة، ولا غرو فقد شارك دروزة فى الحركات والتنظيمات القومية العربية خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٨ منذ أن بدأ يحتك بالحركة التى كانت تموج بها البلاد فى تلك الفترة. فدخل فى جمعية الاتحاد والترقى، الذى انبثقت عنه تركيا الفتاة، ولكنه ترك هذا المجال بعد أن تبينت له النوايا العنصرية نحو عملية التتركة لينضم إلى حزب آخر منافس هو حزب الائتلاف والحرية الذى تشكل فى الآستانة حفاظا على الرابطة الإسلامية العامة، مع تحقيق نوع من الاستقلال الذاتى لكل الشعوب والقوميات التى تعيش تحت المظلة العثمانية، كما أسس الجمعية العلمية العربية فى عام ١٩١١ مع بعض رجالات نابلس من أجل العناية باللغة العربية والمناداة بجعلها أساسا فى التعليم، ثم بعد ذلك تولى تأليف عدة كتب دراسية فى تاريخ العرب تقرر تدريسها فى المدارس الابتدائية والمتوسطة فى فلسطين أثناء الانتداب البريطانى، واتصل دروزة فى عام ١٩١٢ مع بعض رموز حركات الإصلاح فى بيروت واندمج فيها، واشترك بعد عامين فى تأسيس فرع فى نابلس لحزب اللامركزية الذى تأسس فى مصر عام ١٩١٢. واشترك دروزة فى عام ١٩١٦ فى جمعية العربية الفتاة، التى كان اثنان من مؤسسيها الثلاثة وهما الدكتور أحمد قدرى والمحامى عونى عبد الهادى من مدينة نابلس مسقط رأس دروزة، ومن زملائه فى حياته الدراسية ثم أصبح سكرتيرا لها وعضوا فى هيئتها المركزية، وكان فى بيروت عندما تأسست مملكة فيصل فى دمشق، ثم انتخب سكرتيرا للجمعيات الإسلامية المسيحية حتى عام ١٩٣٢، وهى التى كانت قطب الرحى فى الحركة الوطنية الفلسطينية منذ

بدايتها، وكان عضوا فى الوفد الفلسطينى إلى المؤتمر السورى العام عام ١٩١٩، ثم انتخب سكرتيرا للمؤتمر. ويستمر دروزة يؤدى دوره السياسى فاشترك فى تأسيس حزب الاستقلال فى فلسطين عام ١٩٣٢، وانتخب أمينا لصندوق الحزب حتى عام ١٩٣٦، وهو نفس العام الذى تشكلت فيه اللجنة العربية العليا، وكان دروزة سكرتيرا لها، وممثلا للجنة فى مؤتمر بلودان عام ١٩٣٧. ولما ضيق البريطانيون الخناق على أعضاء الجمعية، انتقل مع الحاج أمين الحسينى إلى بيروت لإدارة الثورة الفلسطينية الكبرى وتمويلها، إلى أن ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، ثم نفى إلى تركيا فى عام ١٩٤١ ليعود إلى سوريا فى عام ١٩٤٥، وظل يناضل حتى اعتلت صحته، فاعتكف فى بيته منذ عام ١٩٤٨، وانصرف لنشاطه العلمى والكتابى. وهكذا فقد كان دروزة قريبا من مسرح العمليات فى الحركة العربية الحديثة وفى الحركة الوطنية الفلسطينية، فامتلك القدرة على التأريخ.

واستهل الجزء الأول من كتابه «حول الحركة العربية الحديث»، بتناول أدوار تلك الحركة فى العهد العثمانى بدأً بتكوين الجمعيات السرية والعلنية، لينتقل بعد ذلك إلى الثورة العربية الكبرى ومملكة فيصل فى دمشق.

وفى البابين الأول والثانى من الجزء الثانى تناول دروزة بشىء من التفصيل الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان، ورد الفعل الوطنى للسياسة الفرنسية فى هذين القطرين طيلة عهد الانتداب وحتى الاستقلال، مع الإشارة إلى موقف

كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والأقطار العربية من التعنت الفرنسى إزاء سوريا ولبنان .

أما الباب الثالث فقد تحدث فيه دروزة باقتضاب شديد عن فرنسا والمغرب العربى ؛ فيبدأ بالاحتلال الفرنسى للجزائر ، وجهاد الأمير عبد القادر الجزائرى ، ونظام الحكم والإدارة والسياسة الفرنسية فى الجزائر تجاه التعليم والصحة ، وسلب أراضى الجزائر ، والتجنس ، والتبشير ، ورد الفعل الوطنى ، وحركة مصالى الحاج ، والثورة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . ثم ينتقل إلى الحماية الفرنسية على تونس ونظام الحكم فى ظل الحماية ، ثم تنظيم حركة المقاومة والنضال التى انعقد لواؤها للزعيم على باش حمبة ، ثم إلى الحزب الدستورى بزعامة عبد العزيز الثعالبى ، ثم الحبيب بورقيبة . ويخصص دروزة الفصل الأخير من هذا الجزء للحماية الفرنسية على مراكش ، ويتتبع مسار السياسة الفرنسية فى البلاد ، وتكوين الحزب الوطنى ثم حزب الاستقلال ، وسياسة أسبانيا فى شمال البلاد وحركة الأمير عبد الكريم الخطابى .

ويبدو اهتمام محمد عزة دروزة بقضية فلسطين واضحا ، فيخصص الأجزاء الثالث والرابع والخامس من كتابه « حول الحركة العربية الحديثة » لسرد أحداثها وتطوراتها ، فيبدأ بأهمية فلسطين وشرق الأردن من الناحية الاستراتيجية لبريطانيا ، وملابسات الالتقاء البريطانى الصهيونى ، والمحاولات الصهيونية لتدمير الحركة الوطنية الفلسطينية من الداخل ، وردود الفعل الوطنية حتى هبة البراق فى خريف عام ١٩٢٩ ، وإعلان الكتاب الأبيض عام ١٩٣١ ،

ومرحلة تكوين الأحزاب حتى كانت حركة الشيخ عز الدين القسام وقامت الثورة الفلسطينية الكبرى. ويستمر فى سرد أحداث الثورة والوساطة العربية واقتراح اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين ومؤتمر لندن ١٩٣٩ والكتاب الأبيض فى مايو من نفس العام.

ويتناول محمد عزة دروزة فى الجزئين الرابع والخامس النشاط الصهيونى فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية بالتفصيل، لينتقل إلى المرحلة الحرجة فى تاريخ قضية بلاده، وهى مرحلة الإعداد الصهيونى لإعلان قيام الدولة العبرية. فيتحدث عن آثار ضعف البنية العربية فى ضآلة نشاط العرب على صعيد جامعة الدول العربية،وعن قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، ثم حرب ١٩٤٨ واتفاقيات الهدنة الدائمة ولجنة التوفيق واللاجئين الفلسطينيين.

أما الجزء السادس والأخير فيتعرض فيه للسلبيات والإيجابيات فى الحركة العربية الحديثة والوحدة العربية، وموقف دول الغرب.

ونجد أن كتاب «ثورات العرب فى القرن العشرين» هو أقرب مؤلفات أمين سعيد إلى كتاب «حول الحركة العربية الحديثة» من حيث التشابه فى الموضوعات.

وقد استهل أمين سعيد كتابه بقيام الدولة العثمانية واتجاه الفتوحات العثمانية غربا على حساب الدولة البيزنطية، ثم التحول شرقا ومعركة مرج دابق عام ١٥١٦ فدخول القاهرة فى العام التالى. ويرى المؤلف أن الجيش المملوكى بقيادة قانصوه الغورى عربى، ثم ينتقل إلى الحملة الفرنسية على مصر فى عام

١٧٩٨ وثورة القاهرة فى العام التالى . ويذهب أمين سعيد إلى أن محمد على أحيا الدولة المصرية التى قضى العثمانيون عليها . وتطورت الأحداث التاريخية فى مصر فكانت ثورة أحمد عرابى والاحتلال البريطانى لمصر وثورة ١٩١٩.

ويقرر أمين سعيد أن الشعب المصرى أول شعب فى الشرق العربى يؤمن بالنظام الدستورى النيابى ، ثم قامت ثورة ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر « الربان الماهر الحكيم بطل العرب الأكبر » ، وتنازل الملك فاروق عن الحكم .

وينتقل المؤلف إلى الثورة العربية الكبرى التى أعلنها الشريف حسين صباح السبت التاسع من شعبان عام ١٣٣٤ هـ الموافق العاشر من يوليو عام ١٩١٦ فى مكة . واستجاب شعب الحجاز ، ونظم العرب « ثلاثة جيوش » فى السنة الأولى للثورة ، كان معظم ضباطها من العراقيين والسوريين واللبنانيين والحجازيين ، ووصل « الجيش » العربى إلى الوجه ثم العقبة ليشكل ميمنة جيوش اللنبى الزاحفة نحو القدس . ويتحدث أمين سعيد عن انعكاسات تصريح بالفور على العناصر العسكرية التى تكون منها الفليق العربى ، ثم رد الفعل بعد إفشاء سر معاهدة سايكس بيكو ، وانتهاء الحرب العالمية الأولى وإقرار نظام الانتداب . ويتناول المؤلف ثورات الشعب السورى على الأتراك ثم الفرنسيين ، ومعركة ميسلون وثورة عام ١٩٢٥ التى انتهت « بالاعتراف الفرنسى باستقلال سوريا » ، و « ثورة ١٩٣٦ » التى انتهت بمعاهدة تحدد علاقات سوريا وفرنسا ، و « ثورة ١٩٤٥ » التى انتهت بطرد الفرنسيين من سوريا .

وبعد الحديث عن متصرفية لبنان ، يذهب أمين سعيد إلى أن لبنان لم يكن

له كيان سياسى قبل الاحتلال الفرنسى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ويربط بين «ثورات» الشعب اللبنانى على الفرنسيين وتطوع عدد كبير من اللبنانيين فى ثورة ١٩٢٥ فى سوريا، ويتابع الأحداث التاريخية التى مر بها لبنان إلى أن كانت أزمة ١٩٥٨.

ويشير المؤلف إلى النشاط الصهيونى فى فلسطين منذ أن بدأ روتشيلد فى بناء المستعمرات اليهودية، ثم زعامة ثيودور هرتسل للحركة الصهيونية، وموقف السلطان عبد الحميد منها، ويرى أن حركة القسام تمثل الإرهاصات الأولى للثورة الفلسطينية الكبرى التى يتابع تطوراتها إلى صدور الكتاب الأبيض فى مايو عام ١٩٣٩.

ويتناول ثورات العراق: ١٩٢٠، ١٩٤١ (رشيد عالى الكيلانى)، ١٩٤٨، ١٩٥٨. ويذهب إلى أن الإنجليز هم الذين أثاروا الأشوريين فى الثلاثينات، ويتهم صالح جبر - زعيم حزب الأمة - بالعمالة للإنجليز والتوقيع على معاهدة بورتسموث فى ١٥ يناير عام ١٩٤٨. ثم يتناول ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ وإعلان الجمهورية.

ويتحدث أمين سعيد عن حملة سليمان باشا الأرناؤوطى فى عام ١٥٤٠ التى أعلن أنها متجهة إلى الهند للاستيلاء عليها باسم السلطان سليمان، ومطاردة أسطول البرتغاليين، ولكنها استولت على عدن وقضت على دولة «آل رسول»، وبذلك نشبت الحرب بين الأئمة الزيديين والترك الذين لم يبلغوا صعدة قاعدة الإمامة، كما استعصت عليهم المنطقة الشرقية إلى أن وصلت

حملة ١٩٠٦ بقيادة المشير فيضى باشا التى استولت على صنعاء، واستمرت الحرب إلى أن عقد اتفاق دعان سنة ١٩١١، وجلا الترك نهائيا عن اليمن فى خريف ١٩١٨.

ويشير أمين سعيد إلى أن إيطاليا نزلت إلى ميدان الاستعمار قبل أن تؤسس وحدتها السياسية منذ أن سيطرت سردينيا على جزء كبير من الصومال حين اقتسامه فى عام ١٨٦٤، فاصطنعت فيه قاعدة للزحف على الحبشة، ولكن الإيطاليين ارتدوا بعد هزيمة عدوة ١٨٩٦. ويربط أمين سعيد بين ثورة اليمن فى عام ١٩١٠ وبين «السطو» الإيطالى على ليبيا بعد سحب جزء كبير من الحامية التركية فى ليبيا لمواجهة الثورة فى اليمن، وتزامن هذا بسحب الوالى التركى إبراهيم باشا والقائد العسكرى رجب باشا، مما أغرى إيطاليا بتوجيه ضربتها. ويؤكد أمين سعيد أن الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر اتخذوا سلسلة من الإجراءات لمصلحة ليبيا، ويتهمهم بأنهم كانوا أول من شجع إيطاليا على غزو ليبيا تمشيا مع سياستهم الرامية إلى تقطيع أوصال الوطن العربى وتوزيع أشلائه بين الدول الأوربية لإضعاف القومية العربية فلا تهددهم أو تزعجهم.

ويربط المؤلف بين اضطرابات البلقان وبين يأس حكومة الصدر الأعظم «كوجيك سعيد باشا» من مقاومة الإيطاليين فى ليبيا منذ أن عقدت اليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود حلفا عسكريا لمهاجمة العثمانيين فى مقدونيا وطردهم من الإقليم كله، اغتناما لانشغال الدولة العثمانية بمحاربة الإيطاليين، فأعلن ذلك الحلف الحرب فى أكتوبر ١٩١٢ على الدولة العثمانية التى أرسلت

إلى مندوبيها الذين كانوا يفاوضون الإيطاليين سرا فى سويسرا بأن ينهوا المشكلة ويوقعوا على معاهدة الصلح فى ١٨ أكتوبر عام ١٩١٢، وقد نصت المادة الأولى منها على أن تنسحب القوات العسكرية التركية والموظفون المدنيون الأتراك من طرابلس الغرب وبرقة فى مقابل انسحاب القوات الإيطالية والموظفين المدنيين من الجزر التى احتلتها إيطاليا فى بحر إيجة. ورحل أنور باشا وعزيز على المصرى من برقة لينفرد السنوسيون بالمقاومة، ولكن عاد جعفر باشا العسكرى إلى ليبيا مع بداية الحرب العالمية الأولى، وعين الأمير فؤاد عثمان قائدا عاما لحركة الجهاد فى الشمال الإفريقى. ويشير أمين سعيد إلى اتفاق السنوسيين فى برقة وزعماء المقاومة فى طرابلس مع الإيطاليين وانتهاء الحرب وانسحاب الترك نهائيا، ولكن الإيطاليين نقضوا الاتفاق بعد انتقال الحكم إلى الحزب الفاشستى بزعامة موسولينى الذى وضع نصب عينيه بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة، وانتقلت قيادة الحركة الوطنية إلى عمر المختار الذى استمر فى النضال إلى أن ألقى القبض عليه وحوكم عسكريا وأعدم.

ومع اهتمام أمين سعيد الظاهر بتطورات الحركة الوطنية فى ليبيا، فإنه يوجز فى تناوله للسيطرة الفرنسية على شمال إفريقيا، فيشير إلى انقسام دول أوربا على نفسها فى أواخر القرن الماضى والتحالفات والوفاقات الثنائية والثلاثية، والتنافس الاستعمارى وانعكاساته على شمال إفريقيا إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى بعد تمام السيطرة الفرنسية على تونس والجزائر والمغرب.

وهذه المؤلفات التى صدرت لكل من محمد عزة دروزة وأمين سعيد تحوى

معلومات وبيانات تتسم بالدقة والأصالة فى كثير من الأحيان. ومن يتابع قراءتها بترتيب أوقات صدورها يلمس النمو الفكرى عند كل من المؤلفين، ويلاحظ اكتساب الخبرة. وقد أسهمت بقسط وافر فى تنوير عقول قراء العربية، إذ تعرضت لموضوعات هامة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر، وملأت فراغا كبيرا فى المكتبة العربية، وأكدت تاريخا كان من الممكن أن تضيع تفاصيله ما لم تسجل فى تلك المؤلفات.

ويؤخذ على كتابات محمد عزة دروزة الاهتمام الأكبر بالقضية الفلسطينية ثم بالمشرق العربى على حساب المغرب العربى ومصر، وكان الأجدر بدروزة وكثير غيره من المؤرخين أن يشيروا فى كتاباتهم إلى العوامل التى أبعدت مصر عن الفكرة العربية وحركتها لفترة، حتى يتبين الأمر لقارئ العربية؛ ذلك لأن الفكرة العربية بدأت تعبر عن نفسها منذ الربع الأخير من القرن الماضى، وقت أن كانت تموج بمصر تيارات سياسية وفكرية كان أبرزها التيار الإسلامى، والتيار المصرى. لقد تمسكت مصر بالإسلام منذ أن أصبح دينها الرسمى والشعبى، وظل للإسلام نفوذه فى عقول المصريين، كما ظل الأزهر وعلماء الدين يمثلون الوجه الفكرى والروحى للمصريين ردحا طويلا من الزمن، واحتكر الأزهر المعرفة والتوجيه السياسى للمصريين فى وقت غياب الزعامة السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولذلك اتجه أغلب المفكرين السياسيين فى مصر اتجاها إسلاميا منطلقا فى بعض الأحيان من فكرة الجامعة الإسلامية. وهكذا كان المناخ الفكرى الذى نشأ فيه كثير من

الزعماء المصريين إسلاميا ، ذا محتوى تحررى يعادى الاستعمار . وكان الأساس النظرى والفكرى الذى قام عليه الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل يتبلور فى ثلاث نقاط ؛ منها تخليص البلاد من الاحتلال البريطانى والعودة إلى حظيرة الدولة العثمانية ، وأيد مصطفى كامل حركة الجامعة الإسلامية تحت لواء السلطان العثمانى .

ثم إن مصر مرت بظروف تاريخية أفرزت تيار « المصرية » ، أو « الفرعونية » . فقد بدأت مصر مسيرة طويلة ومتمايزة عن بقية الأقطار العربية العثمانية ، بدأت بتلك الهزة العنيفة التى أحدثتها الحملة الفرنسية على مصر ، فوضعتها على أعتاب العصر الحديث ، ثم برزت الشخصية المصرية المتمايزة عن تلك الأقطار بعد توقيع معاهدة لندن عام ١٨٤٠ .

وفوق هذه الأرضية تحرك التيار الإسلامى وتيار المصرية ، وبينما كان التيار الإسلامى غالبا حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، تعاون التياران على إبعاد مصر عن الفكرة العربية ، وظهر التيار العربى متأخرا .

يضاف إلى ذلك أن عديدا من المفكرين العرب الذين هربوا من عيون السلطان عبد الحميد إلى مصر عاشوا فى كنف المستعمر البريطانى ، وعملوا لمصلحته ، ويقف فى طليعة هؤلاء فارس نمر ومحمد على القلقيلى ، فشوهوا الفكرة العربية فى عيون المصريين . ولذلك بدأ التيار العربى يظهر فى مصر ولكن باهتا ، بدأ من أواسط العشرينيات بجهود محمد على علوبة وأحمد زكى . يضاف إلى ذلك أن المصريين انصرفوا وقتا طويلا إلى الإيمان بوحدة وادى

النيل، وكان ذلك على حساب الفكرة العربية.

ومع اهتمام محمد عزة دروزة بالحركة الوطنية الفلسطينية، فإنه انصرف عن الكتابة فى تاريخ الحركة الصهيونية، أو الإشارة إلى الأجهزة التنظيمية الفاعلة التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية؛ مثل لجنة العمل الصهيونية، واللجنة التنفيذية الصهيونية لفلسطين، والكيرين هايسود، والكرين كايميت، ومنظمة هاخشاراه. هذه المنظمات كانت تدير العمل الصهيونى فى فلسطين حتى تم بناء الوطن القومى اليهودى وأعلن عن قيام الدولة العبرية فى منتصف مايو من عام ١٩٤٨.

كم أنه لم يهتم الاهتمام الكافى بالمخطط الصهيونى لتطويق الحركة الوطنية الفلسطينية من الخارج وتفتيتها من الداخل. حقيقة أنه أشار إلى الجمعية الإسلامية الوطنية وحزب الزراع والحزب الوطنى على أنها حزبيات من خلق صهيونى وهى بالفعل كذلك، ولكنه لم يشر إلى محاولة تهويد عرب الشمالنة، مثلما أغفل المحاولات الصهيونية للتباحث مع عرب من غير فلسطين بغية عقد اتفاق أو وفاق صهيونى عربى غير فلسطينى وعلى حساب الحركة الوطنية الفلسطينية. ويدخل فى هذا الإطار المحاولة الصهيونية الجادة لعقد وفاق عربى صهيونى على هامش المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس عام ١٩١٣ كنتاج لاتصالات المبعوث الصهيونى هوخبرج مع حقى بك العظم ورفيق بك العظم رئيس حزب اللامركزية ونائبه، ومع أعضاء فى لجنة بيروت الإصلاحية، وعبد الحميد الزهراوى رئيس الموتمر العربى الأول. كذلك كان

الحال بالنسبة لاتصالات وايزمان وأعضاء لجنته بمجموعة من السوريين فى القاهرة فى عام ١٩١٨ قبل قدومهم إلى فلسطين واتفاقهم على أسس معينة كانت على حساب القضية الفلسطينية. كذلك بالنسبة لاتفاقية فيصل - وايزمان، والمباحثات الصهيونية العربية غير الفلسطينية التى شارك فيها رياض الصلح على رأس وفد عربى خلا من الأعضاء الفلسطينيين، تلك المباحثات التى جرت فى شهر فبراير عام ١٩٢٢ فى فندق شبرد بالقاهرة، وانتقلت إلى باريس ثم جنيف فى نفس العام، وكاد الفريقان أن يتوصلا إلى اتفاق صهيونى عربى لولا أن البريطانيين قطعوا خط الرجعة عليهم.

كذلك لم يتطرق محمد عزة دروزة إلى التيار الصهيونى الذى آمن بالاتفاق مع العرب على إنشاء دولة ثنائية القومية فى فلسطين يتساوى فى ظلها اليهود والعرب فى الحقوق والواجبات دون النظر إلى الأغلبية السكانية العربية والأقلية اليهودية. حقيقة أن دروزة أشار إلى جودا ماجنس - أحد زعماء تلك الحركة ولكنه لم يشر إلى الجمعيات التى حملت أفكار ماجنس أو آرثر روبين وأنشئت لتحقيقها وهى بريت شالوم أى عهد السلام، وقيدما مزراحا أى إلى الشرق، وعصبة التقارب والتعاون بين العرب واليهود فى فلسطين، وجماعة أيحود أى الاتحاد. وكانت هذه الأفكار تدعو إلى ما يسمى الآن بتطبيع العلاقات بين العرب واليهود.

ويشترك أمين سعيد مع دروزة فى شىء من ذلك. فقد أهمل الأول الخريطة الدينية والعرقية فى العراق ولبنان، وتجاهل صدامات ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٨،

وهبة البراق فى خريف العام التالى وثورة الزراع عام ١٩٣٣ فى فلسطين تماما مثلما اشترك الاثنان فى إهمال القرن الإفريقى والسودان وموريتانيا .

ونحن لا نسجل هذه الملاحظات المنهجية على المؤرخين العظيمين لنقلل من شأن ذلك الجهد القيم الذى بذلاه فى تأليف هذه القائمة الطويلة من المؤلفات القيمة ، ولكن لنوضح أن ذلك الجهد رغم أهميته وقيمته الفائقة ، يؤكد على ضرورة متابعة ما بدآ به ، بعد أن هدأ مرجل الأحداث التى كتبا عنها ، وكشف عن الوثائق ومذكرات الزعماء الذين مارسوا العمل السياسى أثناء تلك الحقبة من تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، وبعد ذلك التقدم الذى أحرزه منهج البحث التاريخى . ونحن بذلك لا نتجنى على المحاولات الفردية لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، وها هو محمد عزة دروزة يسجل فى تصدير الجزء الثانى من « حول الحركة العربية الحديثة » أن هذا الكتاب لم يكتب ليسد الفراغ فى تاريخ الحركة العربية الحديثة ، وإنما هو مزيج من أحداث ومشاهدات ومذكرات وتعليقات متصلة بهذه الحركة أو حولها ، ويعترف أن هناك بعض الثغرات قد ظهرت فيه ، ويقرر أن « الواجب القومى يحتم كتابة تاريخ عربى عام وواف ومحدد ، ثم كتابة تاريخ مفصل للحركة العربية الحديثة » . ويذهب إلى أن « هذا وذاك يحتاجان إلى جهد ونشاط واستعداد قد لايكون فى طوق الفرد » ويكرر القول بأنه « ليس عملا ينهض به فرد ... إذا أريد أن يكون وافيا ومرضيا » .

* * *

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF THE ARAB RESEARCH AND STUDIES
مكتب التعليم لجامعات العربية